كتاب لمؤلف امريكي عن المعماري العربي راسم بدران:

متابعة لتنظيراته عن روائية المكان واعماله المعمارية العالمية

عمان ـ «القدس العربي»
ـ من يحيى القيسي:

بعد سنوات من البحث والتأليف والاعداد انجز البروفسور جيمس ستيل استاذ التصميم المعماري في جامعة جنوب كاليفورنيا المعروفة (USC) كتابا خاصا بعنوان (عمارة راسم بدران ـ روائية المكان والانسان)، وهو نتاج دراسات مطولة وبحث تناول مواضيع انسانية،و جغرافية، وحضارية،و معمارية وبيئية ترجمت الى لغة بصرية دقيقة لتخط تصاميم وفراغات ذات هوية ترتبط بخصوصية الحضارة العربية والاسلامية، ولا يعد هذا الكتاب كما هو حال الكثير من الكتب المعمارية سيرة ذاتية لاعمال معمارية لها طابع معين او نمط محدد مرتبط بمؤلفه.

ولعله من الضروري الاشارة بداية الى ان هذا الكتاب قد فاز بالجائزة الاولى والتي قدمت الى مؤلفه البروفسور جيمس ستيل « INTERARCH SILVER MEDAL ـ والذي تم الاعلان عنها في مؤتمر الاكاديمية العالمية للمعماريين يوم الرابع عشر من ايار (مايو) المنصرم، وهذه الاكاديمية تضم في عضويتها قرابة 100 اشهر معماري من مختلف ارجاء العالم، وقد تم اختيار بدران عضواً دائماً فيها خلفاً للمعماري المصري الراحل حسن فتحي.

ان في سرد اعمال المعماري راسم بدران كما يقول ستيل في مقدمته للكتاب (المجلد) اعادة فهم لثقافة التجمعات البشرية التي نمت بحضارات توارت بين جدران منسية لتحل محلها مظاهر ابداعية فردية مبعثرة، لقد توجهت مسارات المعماري بدران بعمله الدؤوب لاربعة عقود لابراز الخصائص المعاصرة للحضارة العربية والاسلامية من خلال المفهوم العمراني المرتبط بالابعاد الاجتماعية والبيئية والثقافية اي العلاقة الجدلية بين الانسان والمكان والزمان، وفي العام الماضي ارتقت هذه الاعمال المعمارية لتكتسب صفة العالمية والانتشار عبر الوسائل الاعلامية (الكتب والمعارض الجوالة) مواكبة بذلك لغة العصر في خطاب الذات والآخر في آن واحد.

في روح هذه المرحلة الجديدة من مخاطبة الحضارات الاخرى والاضافة للميراث العالمي الثقافي قامت دار النشر البريطانية T&H (Thames & Hudson) ولاول مرة بعد وفاة المرحوم المعماري العربي حسن فتحي (حيث نشرت له كتابا بتأليف ذات المؤلف)، باعداد هذا الكتاب الذي يتسلسل في مواضيعه بداية بالكشف عن العوامل البيئية والثقافية والعلمية والعائلية التي اثرت في تكوين شخصية المعماري المهندس راسم، هذه العوامل التي تتأتى من الميراث الثقافي الحي الذي من خلاله تأثر المعماري راسم بدران بمعايشة والده الفنان جمال بدران الذي ابدع في الفن الاسلامي في فهم المحيط وتحسس معالمه الامر الذي اثرى مخيلته وقدراته على قراءة ما حوله مما اثرى مسيرته في الابداع والابتكار.

وقد امتد هذا التأثير الواضح من خلال تنقله والعيش في بيئات مختلفة ابتداء من القدس، رام الله، دمشق، طرابلس، عمان والمانيا الغربية سابقاً مما ادى الى تخزين الانمطة المدنية واحداثياتها الاجتماعية والعمرانية المتنوعة في ذاكرته وبالتالي القدرة على قراءة المكان بفضول وتجديد كبيرين منذ طفولته.

ولا شك في ان التعليم الاكاديمي الذي تلقاه المهندس راسم بدران في مدينة دارمشتات في المانيا الغربية (سابقاً) في الستينات والتي كانت شاهداً للثورة الطلابية في وسط اوروبا والتي جسدت انقلاباً جذرياً على الانظمة الكلاسيكية في السياسة والتعليم والقيم الاجتماعية قد اثر على طريقة تفكيره الجدلية والنظرة التحليلية الفاحصة، الامر الذي خلق لديه القدرة على كشف الامور الباطنة واستخراج المحددات البيئية والانسانية التي تشكل العمران في مدننا وبيئاتنا المعاشة.

ويزخر كتاب المهندس راسم بلوحات ملونة تحليلية من انتاجه (360 لوحة منها 348 لوحة ملونة) تظهر لديه ملكة التعبير المرئي والجدلية الفكرية في تجسيد التكوين العمراني للمشاريع المطروحة، حيث يعرض الكتاب ـ وبسرد تعليمي ـ فلسفة التصميم والتكوين وادواته التي طورها المعماري بدران والتي تضعها في حوار جدلي لمبادئ الحداثة المتجددة في المنطق الفكري والتعبيري وذلك بسرد الخلفية الثقافية والبيئية للتجمعات البشرية في منظومة روائية لنشأة المكان محترمة التجدد المستمر للمفاهيم الوظيفية وادواتها.

يتناول الكتاب الجانب غير المرئي من العمران وترجمته الى البعد الحسي المادي (العمران) الذي يتجسد من خلال الظواهر البصرية والمتأثرة بالبعد الميتافيزيقي الذي يضفي صفة الروحانية والسكنية في المباني عامة كانت ام خاصة، لذا يمكن اعتبار كتاب المعماري بدران مجمعا ثقافيا وعمرانيا ينقل القارئ الى مشاهد حية لذاكرة حضارتنا، من خلال تأليف قصصي يقوم الانسان في صياغته بتأثره ببواطن المكان واسراره لتظهر المعالم والخصائص الحيوية الكامنة في هذا المكان باعتباره الثابت والذي يتطور وينمو في اطار الزمن المتغير مواكبة احداث عصره ولتصبح شاهداً مرئياً على قدرة الانسان على الاستدامة.

يمكن للمعماريين ان يجدوا في كتاب راسم الكثير من الرسومات والتخطيطات والصور والمواد التنظيرية عن العمارة الحداثية والاسلامية، ويمكن ايضا للقراء العاديين ان يجدوا فيه تجربة غنية لانسان عربي ابدع في التصميم والتنظير والتصوير الفوتوغرافي والنظر الى العمارة مثل كائن حي. وحسنا فعل سيل المؤلف والمعماري باختيار الصور والمواد المرافقة، فهو في النهاية يعرف جيدا من هو بدران في المستوى المعماري العربي والمحلي، ومن الواضح ان الرجل قد قسم كتابه الى سبعة فصول بدأها بمقدمة بعنوان «واقعية التنوع مع فردانية الهوية»، وفي الفصل الاول كتب عن «روائية الناس والمكان والثقافة»، وفي الفصل الثاني «التراث المبدع والعودة الى الشرق»، وفي الثالث «البيوت والسكن»، وفي الفصل الرابع «البعد الرابع في الروح»، وفي الخامس تحدث عن حفظ التاريخ حيا او فاعلا، والفصل السادس تناول «الجنة الارضية»، وفي السابع والاخير هناك «اعادة اكتشاف للمدينة الاسلامية».

كل هذه الفصول البحثية عرجت على اعمال بدران المنجزة في السعودية وقطر بشكل اساسي وفي الاردن وبعض الدول العربية والاجنبية، ولعله من المفارقة التي يجب ذكرها في هذا المقام ان الحيزالمعماري الذي اتيح لراسم في بلده الاردن اقل بكثير مما هو متوقع، اما في فلسطين جذوره، فربما لم يتمكن بعد من انجاز شيء يذكر للظروف القاهرة المعروفة، وراسم لمن لا يعرفه رسام وتشكيلي من طراز رفيع اما في مجال الفوتوغراف فهو محترف بامتياز وقلما يكتشف المرء هذه الخصلة فهو لا يعلن عنها غالبا، وفي العادة فان التخطيطات او الخربشات الاولى لاعماله تظهر على الورق ثم تخضع للاضافة عليها او تطويرها لتتحول فيما بعد الى عمارة حقيقية من اسمنت وحجارة وحياة نابضة في اعماقها، وعلى اية حال فان ما يشغل معماريا اسلاميا وعالميا حداثيا في الآن نفسه مثل راسم هو ربط العمارة بالحياة، فالمدن او التجمعات المعمارية الصغيرة او الكبيرة، نواتها واحدة، وعليه فانه يفكر دائما بان تكون العمارة منسجمة مع جغرافيا المنطقة وطبيعة سكانها، واليفة عليهم و ترشح منها السكينة والطمأنينة والرأفة، واكثر ما يؤرقه تلك العشوائية في البناء وطبيعته ونفوره عن المحيط وتعاليه على الانسان، ان الكثير من البيوت برأي راسم هي غير صالحة للسكن، رغم فخامتها، انها تتوجه الى الخارجي، لا الى الداخلي، اي انها تنادي على المارة عارضة بابتذال او غرور بدل ان تنشغل براحة ساكنيها.

اعمال بدران التي شهد لها القاصي والداني، واحتفت بها المانيا العام الماضي عبر معرض ضخم يروي سيرة عائلة بدران اي راسم المهندس، وجمال الرسام الاب، وجمال المعماري الابن، وسميرة الشقيقة التشكيلية، وعلا الابنة المسرحية، تدل على مدى ذلك الرابط القوي بين الشرق والغرب، بين الروح والتقنية، وبين الخبرات والدراسة، وتلك الوشائج التي تربط الثقافات ببعضها دون انفصام.

ان كتاب «عمارة راسم بدران» لا يستحق فقط ان يدرس في اقسام الهندسة المعمارية في الجامعات العربية، بل ان يتم الاحتفاء به على اعلى مستوى، فمن غير المعقول ان يتجول معرضه في مناطق عالمية كثيرة ويتم اهماله في بلده وبين محبيه، ومن غير المعقول ان يمر صدور مثل هذا الكتاب الضخم المتميز دون تكريم لمؤلفه والمؤلف عنه.

المسجد القديم (القدس العربي)

المسجد الكبير (القدس العربي)

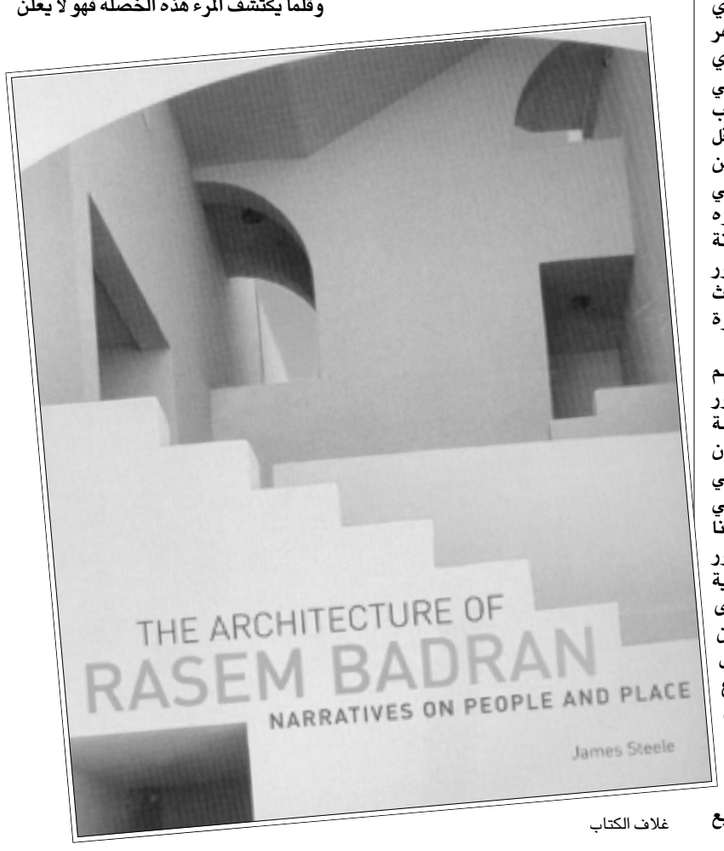

غلاف الكتاب

تداعيات

بين ثياب البعثية وثياب التهريب

منهل السراج*

■ ثياب موظفات الحركة التصحيحية، حقائب البعثية، تسريحة زوجات المسؤولين، طقم نقابة العمال..

تلك هي الجمل التي كانت البنات تتهكم فيها على المظهر غير الأنيق.

كنا نشعر أن كل ما نحصل عليه خارج أجهزة الحكومة مؤسسات، مخابرات، جمارك، مسؤولي ضرائب، هو بالتأكيد حلال وقريب ويشبهنا، وما يأتينا من الحكومة مرفوض ومشكوك بأمره، نكرهه ويكرهنا.

لذلك كنا نتجنب كل ما يجعل مظهرنا يمت بصلة لهذه الأمور. وكانت البضائع المهربة هي الملاذ، ذلك لأن الوطنية، أقصد الثياب الوطنية، غالباً ما تشبه ثياب جماعة الحركة التصحيحية، وما يقاربها. وهي بالتأكيد تعني الشرشحة، والثياب الرخيصة، والذوق المتدني. لذلك كانت معظم الفتيات، يفضلن ثياب التهريب، يعني حين تقول احداهن: أحضرت ثيابي من عند «ماجدة» فهي تعني ثيابا تركية، أما بضاعة «ام ربيع» فتعني ثياباً أوروبية وهي باهظة الثمن بالتأكيد. وكنا نحن متوسطي الحال ونحب الثياب كثيراً ونحب تغييرها أكثر. نذهب الى منطقة أعزاز في حلب لشراء الثياب التركية من أول منطقة تهريب، يعني قبل أن يرتفع ثمنها بزيادة عدد وسطائها، مثل ماجدة وغيرها.

عادة كان يتبرع أحد الآباء بالذهاب معنا في سيارته. نقضي اليوم ندور على بيوت أعزاز، يتخاطفنا الأولاد المتمترسون كقطاع الطرق عند مدخل المنطقة، تماماً مثل فعل الجمارك عليهم عند حدود التهريب. يعرضون المساعدة عبر ارشادنا الى أحسن البيوت، وأحسن الأسعار على حد قولهم. في كل عام كان لدينا على الأقل أربعة مشاوير لأربعة فصول، نرجع بغنيمة مفرحة. كان جديد الموضة حين نقتنصه، يجلب لنا الفرحة، ولو لساعة نظهر فيها جمال قوامنا.

نرتدي الثياب الجديدة في زيارات بعضنا، ونقهرالأخريات اللواتي لم يرتدين مثلها. لكن ذلك الجديد يصبح قديماً في الزيارة التالية، بينما تأتي الأخريات بجديدها وتقهرنا، وهكذا. كنا نتبادل قهر بعضنا ونتبادل الدور بتلك الفرحة.

في أحد الفصول انشغل جميع الآباء، ولم يقبل أحد مرافقتنا، طبعاً كان من غير الممكن ذهاب فتيات دون مرافقة الى منطقة التهريب، لذلك قررنا وبثورة جماعية أن نذهب بوسائل المواصلات العادية خمس بنات بلا مرافقة ولا موافقة، كنا طالبات جامعة نسكن بيتاً واحداً في حلب.

سألنا كثيراً حتى استدللنا الى سرافيس أعزاز، وتنقلنا بين الشوارع والساحات كثيراً الى أن استطعنا ركوب احداها. كان في أيدينا مناقيش الجبنة والزعتر وقهقهاتنا تخلع سماء حلب.

ـ أحتاج جاكيتا شتوياً.

ـ أحتاج بيجامة للرياضة.

ـ أحتاج طقما رسمياً..

أدار السائق مفتاح المحرك فانطلق صوت أغنية من عرس محمد ابن أبو كدرو، أخوه حسن وعمه.. نسيت اسمه. بدأ المطرب بالتحيات قبل أن تنطلق ضربات الدربكة العنيفة مع أصوات رصاص العرس.

ما ان قطعت السيارة أول شارع باتجاه الخروج من حلب، حتى أوقفها شرطي المرور باسماً ابتسامة متثائبة ذلك لأن الوقت كان صباح الجمعة. بعثت هذه الابتسامة امتعاضاً على وجه السائق، لكنه وبتلقائية شديدة مد يده الى درج صغير وسريع وجاهز، وتناول مبلغاً ما، لم يكترث أن يعده، ربما لأنه يعرفه أو يقدره لشدة اعتياده. ناوله اياه بمصافحة سريعة وأقلع من جديد بأغنيته وسيارته.

نحر بأصابعه ذراع السرعة. أول ثم ثان، ثالث.. رابع.

ما هذا؟ خلال ثوان دار مؤشر السرعة الى الجهة الأخرى.

كان يتجاوز السيارات بسرعة غريبة. الطريق واحد والسيارات باتجاهين.. توقفت لقمة المناقيش في حلوقنا، واصفرت وجوهنا، قلت له بصوت ضعيف:

ـ لو سمحت، أنا أخاف من السرعة.

قلب برأسه الى الوراء من الضحك، وكاد يترك عجلة القيادة من يده. وهو يهتز بمكانه، ضحك وضحك ثم رفع صوت أغنية العريس أكثر وطار.. نظرت في وجوه البنات، كن كلهن خائفات، منهن من أخرجت مصحفها الصغير وراحت تقرأ، ومنهن من راحت تتمتم مما تحفظ من أدعية السفر والسلامة.

قالت له رفيقتي بصوت أكثر جدية:

ـ تقول لك رفيقتنا انها تخاف من السرعة.

ضحك من جديد بنشوة هائلة لأن صوتاً رقيقاً آخر يرجوه.. وزاد في طيرانه. كنا كلنا نمسك بالقضبان المحيطة مستسلمات تماماً للموت القادم، وكنت أنا من تعلمت قيادة السيارة حديثاً أضرب بقدمي فرامات وهمية، مع ضربات قلبي الذي انخلع.. وسرحت في تخيل كيف ستبكي أمي على موتي، وكيف ستغضب في الوقت نفسه، أن أقوم بهذا الفعل دون موافقة، وتذكرت أخي الصغير الذي أحبه وحزنت كثيراً لأني سأموت ولن أراه، وتذكرت أني تركت إسورة أمي في درج طاولتي، وأني استعرت نوطة الرياضيات من أحد الزملاء ولم أرجعها، كل هذه الديون! و... سأموت الآن.

من المعروف أن الطريق يأخذ ساعة ونصفا، لكنه استطاع الوصول بطيارته خلال ساعة ودقائق قليلة.

حين لاحت لنا لائحة «أعزاز ترحب بكم» شعرت باحدى لحظات السعادة السبع الوحيدة في حياتي. ما ان توقف حتى تدافعنا للهروب ونسينا أخذ بقية حقنا من المبلغ الذي دفعناه. طبعا البنات كثيرا ما كن يخجلن من طلب الخمسة او العشرة أو الخمسة والعشرين المتبقية.

قلت لهن:

ـ كيف سنرجع؟

أجابت أشجعنا:

ـ مثلما أتينا.

اصفر وجهي أكثر.

«أمامي ساعة أخرى من الرعب؟»

قالت:

ـ هذا السائق مجنون.. البقية أكيد ليسوا مثله.

مضينا مع أول ولد أشار لنا، قضينا الساعة الأولى من التسوق مهمومات لطريق العودة، ثم ما لبثنا أن انهمكنا بالبحث والتنقيب بين البضائع، عن طقم مختلف وبنطال مختلف وحقيبة و..ست ساعات، كيف مرت!

حين اقتربنا من سرافيس العودة، تخيلت القصة نفسها وسمعت الأغاني وضحكات السائقين، وأوشكت على البكاء. لكن لم يكن باليد حيلة. وضعت البيجامة الزهرية التي اشتريت وجزداني الصغير الذي كان بحوزتي في حقيبة الجينز الجديدة وهي الشيء الوحيد الذي بعث في العزاء من رغب الصباح. أخذت مكاني بجانب صديقتي، وانتظرنا حتى امتلأ السرفيس الأبيض. وجلس إزاءنا ثلاثة رجال أشاوس، كنت كل لحظة اتفقد حذائي ان كان يلامس أحذيتهم. وكان أحدهم منتعلاً خفاً صيفياً أو ما يسمى «الشاروخ» ويدخن سيجارة بعمق ومتعة، كل سحبة منها تصاحبها اغماضة عين. أدار السائق مفتاح المحرك فانطلق أذان الله أكبر يرافق كل اقلاع. حبست أنفاسي متوجسة من مشوار الرعب.. لكن بعد أن استقر على طريق السفر تبين لنا أن سرعته أقل بكثير من سرعة الصباح. اطمأننت وأصغيت لصديقتي تتحدث بابتهاج عن الحذاء الذي يناسب الطقم الجديد الذي أحضرته وموديله ولونه ومن أي محل، قالت:

ـ تخيلي اللون البيج معه، يهوس..

تخيلت، فوجدت أنه حقاً سيكون جميلاً، مع لون الطقم الذي يتمايل بين البني والأخضر، وحددنا أن أول مشوار بالطقم سيكون لأكل الشوكولامو في العزيزية، وحددنا لون الجوارب النايلونية، والأساور والخواتم، التي نسميها «اكسسوار» والجزدان وقلم ظل العين وأحمر الشفاه...

فجأة، وفي عز هذه الأناقة، رأيت دخاناً ينطلق من حضني، حيث وضعت حقيبتي الجديدة في داخلها البيجامة الزهرية، بهت، ونظرت الى صديقتي التي كانت تتابع الدخان وتنظر في وجهي متسائلة ومندهشة، نظرت في وجوه الرجال الثلاثة أمامي، فوجدتهم ينظرون باستغراب لكن لأنهم أشاوس فقط بدا استغرابهم «على التقيل» يعني من خلف قلة اكتراث، رجعت أحدق في حضني، عل ما رأيته ويراقبونه يكون وهماً، لكن الدخان الذي اتضح أنه ينطلق من الحقيبة تكاثف وملأ وجهي وعيوني.. استيقظت من دهشتي ورميت بالحقيبة على الأرض بين الأحذية جميعاً، هنا فقط تحركت أقدام الرجال الثلاثة الأشاوس وراحت تدعس حقيبتي الجديدة والبيجامة الزهرية بكل ما أوتيت من قوة الى أن توقف الدخان. رفعت جثة الحقيبة والبيجامة الزهرية من بين الأقدام، وجدت شقوقاً محروقة كلاً منها بحجم شباك. نظرت في وجوه الرجال المقابلة والصامتة، فتبرع أحدهم وأشار برمشة خفيفة جداً من عينه، أحسستها اشارة أو ما يشبه الاشارة الى أن جاره رمى سيجارته من الشباك فارتدّت الى حقيبتي.

سحبت جزداني لأنقذ ما تبقى من مصروف الشهر، وأمسكت البقية بأطراف أصابعي مملوءة بالغضب، لكنه بدا غضباً ضعيفاً، لأنه لم يحرك جفن صاحب السيجارة، وظل صامداً. وفوق خسارتي تلك، اضطررت لارتداء بيجامة وطنية، ظلت علامة الصنع تحك قفا رقبتي حتى قصصتها، وصارت حكايتي، احتراق حقيبتي والبيجامة الزهرية الجديدة، قصة تتندر بها بنات البيت، طوال سنوات الدراسة.

* كاتبة من سورية

ثلاث قصائد

عبد اللطيف اطيمش*

وصية

يا اخوة الفكر، وأهل الأدب الرفيع،
والكتابة الشعرية
اوصيكم وصيةْ:
صونوا نقاء حرفكم
واحموا صفاء وجهكم
ومجدوا الحريةْ

***

مسمومة موائد السلطان، اذلاليةْ
لا تقربوا احبولة السقوط في الدنيةْ
لا تجعلوا مطامع الدنيا،
تذل القيم الأبيةْ
فالكل، في خاتمة المطاف
يموت في عزلته بسكتة قلبيةْ

شاعر

بنفثة من روحه،
يستيقظ الفجر...
ويصحو الطير من غفوته،
ويورق الندى على الأغصانْ
بخفقة من قلبه،
تخفق كل نجمة بضوئها،
وتهبط الشموس من ابراجها،
وتطرب الأكوانْ

***

برمشة الايمان من أهدابه
تمشي له الجبال،
او اذا مشى يمشي بصولجانْ
وان حكى يصغي له الزمانْ
لكنه يظل ـ مهما هام في سمائه ـ
انسانْ.

سجين «خان الهنود»**

رفيقي بسجن «النجفْ»
سجن «خان الهنود»
عذبوا جسمه المتهالك،
لكنه ما ارتجفْ
خوفوه بكل المخيفات،
لكنه لم يخفْ
كان صلبا عنودْ
علّم الدرس سجّانه،
كيف معنى الحياة،
وكيف يكون الصمودْ
قطعوا لحمة الشفتين،
وما عرفوا السر...،
لكن جرحا نزفْ
مات مبتسم الوجه،
لكنه ما اعترفْ

* شاعر من العراق يقيم في لندن
** «خان الهنود» سجن قديم في مدينة النجف الاشرف، امضى فيه الشاعر قرابة عامين.